

السباق

قصة بقلم محمد ابو المعاطي ابو النجا

النراعين المفتولين اللذين يصنعان حول الرأس نصف دائرة لا تكف ابدا عن الحركة . وكان شعره الخشن يبدو جافا دائما كان المياه لا تحيط به بينما تختفي عيناه خلف المنظار السميك الذي يلتف حول رأسه ليحمي عينيه من المياه ، وفي الخلف كانت قدمه تدفع المياه في ايقاع ثابت ينظم حركات الجسد كله ويدفعه الى الامام ، وكان صدى هذه الحركات يظهر تباعا فوق صفحة النهر في صوت تواجبات لا تكاد تنتهي حتى تبدأ ولا تكاد تتخلف عن السباح حتى تلحق به !! .

ومد السباح نظره لحظة الى الامام فابصر مياه النهر تمتد امامه الى ما لا نهاية بينما كانت عيناه تغطفان خلال حركة رأسه فوق المياه صورة شاحبة لاشجار الكافور والسنط وهي تسير بحذانه على امتداد الشاطئ وتحتجب خلفها حقول البرسيم والقمح المترامية الاطراف ، ومن مكانه في النهر كانت ترسم في رأسه صورة شاحبة لخط حلوان الحديدى وهو يمتد في قلب هذه الحقول والقطار يقطعها في سرعة فائقة وفي داخله يجلس عشرات الركاب على مقاعدهم المتقابلة ، وعيونهم تتوزع نظراتها الفلقة بين صحف الصباح ومناظر الحقول المسرعة ابدا الى الوراء . كيف يمكن ان يدرك هؤلاء الركاب انهم يقظون المسافة من حلوان الى القاهرة بطريقة فذة هو نفسه قطع هذه المسافة مئات المرات بهذه الطريقة . . . ولم يكن يشعر وقتها بغير السأم يستبد به فيحاول ان يتخلص منه بالتطلع في وجوه الركاب ويحاول ان يجد نوعا من المتعة في مشاهدة هذه الوجوه التي تكون في مجموعها كرنفالا من الجمال والقبح والصحة والمرض والابتهاج والكتابة والشباب والشيخوخة، كانت مسلاته الوحيدة حينذاك ان يتفرج على هذا الكرنفال بينما كان هذا الكرنفال يد غير مكثرث به على الاطلاق ، كان كل فرد فيه يبدو كسالم قائم بذاته ، والقطار وحده هو الذي يجمع هذه العوالم المتباعدة كل صباح ، ولايكاد القطار يقف في نهاية الخط حتى تتلاشى هذه العوالم في شوارع المدينة الكبيرة ، وفكر انه ربما كان هؤلاء الناس جميعا يفكرون هذا الصباح فقط بطريقة واحدة . . . فجميع الصحف تحمل في عناوينها الرئيسية انباء السباق ، واذا جرى أي حديث بين راكبين فلا ريب انه سيكون عن السباق وعن احتمالات الفوز بالنسبة للمتسابقين ، سيعرف هذه المرة كيف يجذب انتباه هذا الكرنفال الصامت وكيف يجعل هذه العوالم المنفصلة تلتقي في لحظة نادرة . . . حقيقة كم ستكون لحظة نادرة تلك التي تتحقق فيها هذه المعجزة بالنسبة له . . . ان يكون هو الفائز الاول في سباق النيل الدولي . . . ساعتها سوف تحدث اشياء غريبة حقا . . . سوف يقطع المذيع البرنامج المادي ليعلم النبا ، وسوف يقطع اي متحدثين كلامهما ليصغيا الى النبا ، وتبني اللقمة في طريقها الى الفم وقد يكف اثنان عن المشاجرة ، ويتغير مجرى أي حديث بين كل الجماعات القريبة من الراديو ، وهكذا يصبح الفائز الاول في تلك اللحظة السحرية شيئا عاما في حياة كل الناس كالشمس والهواء ، وضوء القمر . وفي صباح اليوم التالي تنشر الصحف صورته لا بل سوف تنشر في عصر اليوم في صحف المساء ، . . . ولحظتها تلتقي ملايين العيون فوق صورته وستتعرف على الصورة اناس لا حصر لهم ، زملاؤه في الدراسة ، اساتذته اصحاب الدور التي سكن حجرة منها وهو تلميذ ، اصحاب الدكاكين التي كان يشتري منها حاجاته ، وبنات الجيران اللاتي احبهن

كان كل شيء في البداية ، الشمس ترتفع قليلا عن حافة الافق ، والطيور تغادر أعشاشها لتعبر النهر الى الجانب الاخر ، والقوارب العديدة التي تحمل المشرفين على السباق تتوزع على صفحة النهر ليتابع كل قارب السباح المكلف بمرافقته والمجاذيف تضرب صفحة النهر في ايقاع هادئ يختلط بأصوات الاذرع التي تشق طريقها في مياه النهر بضربات فيها قوة البداية ، واضواء الشمس تحيل صفحة النهر فسي تلك الساعة المبكرة الى مرآة لامعة تبرز فوقها رؤوس سوداء تشق طريقها الى مدينة القاهرة التي كانت تستقبل في تلك اللحظات صباحا جديدا من شهر مارس عام ١٩٥٤ .

كانت رؤوس السباحين تصنع بعرض النهر خطا لا يكاد يستقيم لحظة واحدة خطا تتقدم بعض اجزائه فتتأخر الاجزاء الاخرى ثم لايلت ان المتخلفة ان تتقدم فيستوي الخط للحظات قليلة ثم لايلت بعدها ان يلتوي مرة اخرى ، ولكنه ظل طوال الساعات الاولى من السباق خطا واحدا لايشعر الناظر اليه من بعيد سوى انه خط يستقيم او يتعرج . .

وبدا هذا الخيط يتقطع تماما حين بدأت احدى هذه الرؤوس تندفع بقوة الى الامام يتبعها على البعد رأسان متقاربان على حين كانت بقية الرؤوس تتوزع على مسافات متباعدة ، وخلف كل رأس قارب صغير يسرع او يبطئ تبعا لحركة الرأس وفي ذيل القارب علم صغير للدولة التي تحمل الحكيم الدولي تتنقل بسرعة بين اجزاء الخط المتناثرة التي ينتمي اليها السباح . وفي ذات الوقت كانت القوارب البخارية فوق صفحة النهر لتدون ملاحظاتها عن سباق النيل الدولي تلك الملاحظات التي تلتفها على الفور وكالات الانباء لتقدم اخبار السباق اولا باول . . وارفع الرأس الذي كان في المقدمة عن صفحة المياه فدنا منه القارب المرافق ، وسال السباح . .

- اين مكاني في السباق ؟
- في المقدمة .
- واين نحن في طريق السباق ؟
- اننا تجاوزنا المادي منذ قليل ، تقريبا قطعنا نصف المسافة من حلوان الى القاهرة .
- حسن ساظل في المقدمة دائما .
- ارجو ذلك . . ولكنني لاحظت انك تسبح بسرعة فوق المعدل المطلوب لهذه الرحلة من السباق واخشى الاتحافظ على هذا المعدل حتى النهاية . . والافضل ان تدخر قواك للمرحلة الاخيرة الفاصلة حين تدور حول الجزيرة وتسيح ضد التيار . .
- ان التقدم يمنحني قوة غير عادية . .
- التقدم في النهاية هو المهم . . الافضل ان تهدى من سرعتك .
- اود لو عصيت اوامر هذه المرة . . .
- انني مدرك وعليك ان تطيع اوامري .
- افضل لو تأمر لي الان بشراب دافئ فقد بدأت اشعر ببرودة المياه .
- خذ هذه زجاجة من عصير البرتقال . . لم يأت بعد وقت الشراب الدافئ . . .

★ ★

وعاد السباح يشق طريقه البارد الرجراج بذرعيه ، ورأسه يتحول فوق صفحة المياه اللامعة الى نقطة سوداء لا تكاد تظهر لولا حركات

سيتعرف جميع هؤلاء على الصورة التي ستثير في قلوبهم مشاعر لا حصر لها ، وسوف تحرق فيها عيون كثيرة مجهولة وسوف يقال كلام كثير يعرفه ولن يكون بمقدوره ابدا ان يعرفه ويحس بسعادة غامضة مجهولة تبعث الدفء في قلبه وفي مياه النهر ...

- اريد ان اكل شيئا ...
- انا معد لك وجبة من شرائح الدجاج ...
- اين مكاني في السياق ؟
- انت لا تزال في المقدمة ...
- هل بدأ احد يقترب مني ..؟

- هذا لا بهم . هناك سباح يوناني يسبح في مستواك بعرض النهر... انتك تسبح الان باقل من معدلك المعروف ... وهذا سيصبح لك في النهاية ان تحقق الفوز ... انا مسرور لانك تنفذ خطتي بدقة ..! - خطتك ؟ حسن ... دعني اكل اولا ... اليس الطعام جزءا من خطتك ؟ ولكنني بعد ان اتاوله لن اترك احدا يتقدمني ابدا ... - انا لا اخاف عليك الا من هذا الحماس ..!! - امي كانت تخاف علي وانا طفل من البرد ، وبعد ان كبرت كانت تخاف علي من الفرق ، ولولا هذا الحماس لما كنت هنا اليوم !.



وعاد السباح يشق طريقه البارد الرجراج ، كانت حركات ذراعيه تؤلف مع حركات قدميه هذه المرة ايقاعا حادا ، كان رذاذ الماء يرتفع حوله في قوة ثم يسقط الى الخلف غارقا في هذه الدوائر التي تلاحقه دائما ...!

ولم يعد يفكر في شيء ، كان النهر قد تصالط امام عينيه ولم يعد يبصر منه سوى هذه المسافة التي تفصل بينه وبين السباح اليوناني ، كان يبصر هذه المسافة تتصاعل شيئا فشيئا كلما رفع رأسه ليحدد مكانه من عرض النهر كان يسبح بميل جهة الشاطئ الاخر حتى لا يصبح عرض النهر في صالح منافسه وبدت له اشجار الشاطئ الاخر اكثر وضوحا في نفس الوقت الذي بدأ النهر امامه كطريق خال من المارة .. ويلمح في خاطره ان الفوز ليس له غير صورة واحدة . هو ان يظل النهر امامه هكذا خال من كل احد فهذا معناه انه وحده في المقدمة ... ويبدأ له الامر سهلا للغاية ... غير ان صورة اخرى تبرز في رأسه فجأة ... صورة سباح يبرز من الخلف في نقطة ما من هذا النهر العريض ويندفع الى الامام بقوة هائلة ان عليه ان يسبق دائما ذلك المجهول الذي قد يبرز فجأة من الورا وفي اي لحظة ، ويشند احساسه بهذا المجهول الذي يمكن في الورا دائما والذي قد يتقدم عليه في اية لحظة ، ويتحول هذا الاحساس الى ذراعيه وقدميه فيزداد الرذاذ المتساقط الى الخلف وتتسع حلقات الدوائر التي تلاحقه دائما ، ويصبح المشرف وهو يحاول جاهدا ان يقترب منه بزورقه ..!

- قلت لك لا داعي لان تبذل طاقتك بهذا الجنون ... ان المسافة بينك وبين او سباح بعدك تزيد الان على ثلاثمائة متر ... لا تنس انك سوف تسبح ضد التيار في النهاية ...!
- سحافظ على هذا المعدل ...
- يمكنك ان تحقق النصر باقل من هذا المعدل ...
- ساهدي قليلا من سرعتي ...



وعاد يسبح بسرعة اقل قليلا .. وأبصر النهر يمتد امامه صافيا ورياح مارس الخفيفة تصنع فوقه امواج صغيرة تنعكس عليها اشعة الشمس فيبدو سطح النهر كطريق زجاجي رجراج ... طريق خال من المارة ... وان يكون في المقدمة ... مقدمة هذا الطريق . فمعناه انه لم يعد امامه سوى الفوز .. لا شيء يفصل بينه وبين الفوز غير هذه المياه اللانهائية ان الصراع يصبح بينه وبين النهر فقط ... انه منافسه الوحيد ... وحين يقهره يصبح اعز صديق ... ويلمح في خاطره للحظة . ان النهر لا يمكن ان يكون عدوا او صديقا لاحد وانه لن يحس به ابدا لو نال الجائزة او غرق بين امواجه الصافية ، وفجأة

يعاوده الاحساس بذلك المجهول الذي يمكن دائما في الورا ... والذي يمكن ان يندفع بقوة هائلة الى الامام ... ان هذا المجهول هو منافسه الحقيقي ... وان عليه الا يترك فرصة ابدا لهذا المجهول ... وبسلا شعور كانت سرعتة تزداد بين لحظة واخرى ... وامكنه ان يلبح اسرابا من الطيور تعبر النهر في نظام يديع ومع ذلك فقد كان هناك طائر في المقدمة ... وعابت الطيور عن عينيه وراح يفكر انها تستطيع ان تهبط في اي مكان حين يحل بها التعب ... وان طائر المقدمة يهبط اولا ثم تتوالى بعده الطيور . ان عليه ان يسبح طوال الوقت بهذه السرعة حتى يظل دائما في المقدمة ... حتى يبقى وحيدا دانسا وسط هذه المياه المتراية ... ان الفوز على الجميع ليس له غير صورة واحدة ان يبقى وحيدا دائما ... ويضايقه للحظات هذا الاحساس بانه سيبقى وحده ... ويبصر امه تجلس بجوار المذيع في انتظار انباء السباق ... صحتها لا تساعدها على ان تترك البيت ... انها لا تزال تخاف عليه من الفرق ... ربما كان المذيع يقدم بين ساعة واخرى انباء عن السياق لا شك انها يتسهم الان في سعادته ... وتأمر اخاه الصغير ان يكف عن الضجة حتى تسمع جيدا انباء السباق ... لعلها تقرأ الان آية الكرسي حتى يحفظه من عيون الحاسدين ، كانت دائما تخاف عليه من عيون الناس ، ولكنه يحس في هذه اللحظات انه في حاجة الى منات العيون لتراه وهو في مقدمة السياق ... لا يريد ان يبقى وحيدا بين هذه المياه اللانهائية ... لا شك ان جماهير كثيرة تنتظر في مدخل القاهرة ... سوف يكون رائعا ان يسبح في نهر يمثل شاطئه بالاف المشاهدين ... انهم سوف يشعرون بالجهود التي يبذلها لكي يظل في المقدمة ... انهم افضل من هذه الاعشاب النجيلية التي لا تدري اذا كان الذي يسبح امامها رجل او سمكة ...! عليه ان يحافظ على هذا المعدل من السرعة لكي يصل المدينة اولا ... ويسأل مدربه ...

- اين نحن من القاهرة ؟
- اين مكاني في السياق ؟
- القاهرة تقترب ... بيننا وبينها نصف ساعة تقريبا ...
- المسافة بينك وبين اقرب سباح تزيد على خمسمائة متر تقريبا .
- سوف اسبح على ظهري بعض الوقت قبل ان ادخل المدينة ...
- تستطيع ذلك لمدة ثلث ساعة فقط تستعد بعدها لاهم جولة في السباق .



ولم يعد يبصر النهر ... كانت السماء تبدو امام عينيه كبحيرة من الضوء وبسبب اجفائه قليلا حتى لا يبهرها الضوء ... ويشعر بالراحة تتسلل الى جسده . في طوفه ان يسبح بهذه الطريقة ساعات طويلة دون ان يشعر بالتعب . كانت متعته ان يسبح بهذه الطريقة - حين لا يكون مشتركا في سياق - ساعات طويلة يشعر خلالها انه عاد طفلا تهدده الموجات كما كانت تفعل امه وهو صغير .. لعل امه قد تعبت من الجلوس بجوار المذيع . ولعلها انتقلت الى فراشها في حجرة النوم ورفعت مفتاح الصوت لتسمع الانباء بوضوح من فراشها .. منذ تعلم السباحة وهو يشعر ان النهر قد اصبح امه الثانية ويزداد هذا الشعور حدة حين يسبح على ظهره ويشعر بالمياه تحته لينة رجراجة ناعمة ... ويتذكر ان امه يمكن ان تنام وهي متمددة على فراشها انها كبيرة السن ... و ... ولكن من المستحيل ان تنام هذه المرة ... فهي تريد ان تسمع اخبار ولدها .. والمذيع مرتفع الصوت ... ويسمع صوت المذيع يرتفع اكثر عن ذي قبل ... وتصدر عنه موسيقى صاخبة عنيفة ، وتزداد الموسيقى حدة وصخبا ، وامكنه ان يميز خلال هذه الموسيقى اصواتا واضحة ... وخيل اليه ان امه تفتي له ... تفتي له مع الموسيقى ، كان ممتلئا شبابا وقوة ..

ويسمع اسمه يتردد بوضوح خلال الفناء ... لم تكن امه تفتي وحدها ... كان معها كورس ضخمة يردد الاغنية التي يؤلف اسمها احد مقاطعها ويشند غناء الكورس ويختفي خلاله صوت امه ، ويشعر ان جميع اجهزة الراديو في شارعهم تردد نفس الاغنية ، ويمتد الفناء

امه لا بد قد نامت وهي تستمع الى اراديو ، انها كبيرة السن ولا قدرة لها على الانتباه طويلا الى شيء ، والفرش عادة يخفي النوم بين طبائنه ، كان من عادته ان يتمدد الى جوارها على نفس السرير ، وسيكون اول شيء يفعله حين يعود الى البيت ان يرقد فوق هذا السرير اسبوعا كاملا ، وحين تحاول امه ان توقفه فسوف يتظاهر بالنوم كما كان يفعل وهو طفل ، واذا ذلك سوف تفعل معه امه نفس الشيء الذي كانت تفعله وهو طفل ، سوف تحاول ان تدلك جسده ، تدلك كتفيه وذراعيه ثم تنزل الى فخذه ويستمر هو في تناومه لتستمر هي في تدليكها حتى اذا غابها استمراره في النوم تحول التدليك الى تفرير في ذراعيه وكتفيه ... ويخيل اليه ان امه تقرصه حقا ... ويتكرر القرص ، ويفكر انه من الجائز ان تقلصا يهاجم بعض عضلات ذراعه اليمنى التي تركز فيها القرص . فيسبح بذراعه اليسرى وحدها مريحا ذراعه المتصلبة . كان في تلك اللحظة يقترب من كوبرى قصر النيل . كان الكوبرى المكلل بالجماهير يبدو كقوس من افواس النصر ، وتبرص الجماهير ذراع السباح المتصلبة مرتفعة قليلا عن سطح الماء كأنها مرفوعة لتحييتها ، وتنبت عن الكوبرى هتافات مدوية ويخيل الى السباح ان الكوبرى يندفع نحوه في سرعة كبيرة ... وحين يقترب من الكوبرى يجد ذراعه المتصلبة تلوح للجماهير في مرونة ويسر يعود يضرب بها صفحة المياه بقوة ويعود الى حركات يديه وقدميه ذلك الايقاع الراقص ، وحين يتجاوز كوبرى قصر النيل يجد قوس النصر الذي كان يسبح تحته يتحول مرة اخرى الى شريط بشري يمتد فوق الشاطئ الغربي للنيل .. شريط يهتف ويلوح وتتقصف تحت اقدامه الاعشاب الجافة ... ان كل شارع في المدينة يدفع الى الشاطئ بنصيبه من هذا الشريط الذي لا يمكن ان ينتهي ابدا بهذه الطريقة ... الذين ترهقهم متابعة السباق ينصرفون بينما يقبل الآخرون دائما ليظل في مقدور هذا الشريط البشري ان ينظر في دهشة مستمرة وان يلوح بحماس لا يفتر ... انه يجد

في جميع الشوارع كما يحدث امام المهرجانات ، ولم يعد يصبر وجه امه ، ولا يسمع صوتها وتزداد الاثنية وضوحا وتصل الى اذنيه عسى المياه كثيفة ضخمة ويسمع صوت مدربه وهو يدنو منه بقاربه .
- الجماهير تحييك ... لوح لهم بنداك ...

ويرتفع من قلب النهر ذراع مفتول مدهون بالشحم تلمع فوقه قطرات المساء .

ويعاود السباحة على صدره منحرفا جهة الشاطئ ، كان يشعر ان الشاطئ كله يتحرك بازائه بعد ان نبتت له فجأة مئات الأرجل ومئات الأذرع . كان الشاطئ يردد اسمه ضمن مقاطع اغنية لا يميز فيها سوى الفرحة ... فرحة جارفة تعبر عنها في لحظة واحدة مئات الوجوه ، وتلوح بها مئات الايدي ، وتثبته في الهواء مئات الحناجر ، وكانت الاعشاب الجافة على الشاطئ تتقصف تحت اقدام المندفعة كما كان الشاطئ كله يرتدي مئات السترات والجلاليب والمعاطف . ويتلاشى في اعماقه ذلك الشعور بأنه وحيد ، فالشاطئ يسبح بجواره مرتديا ازياء العديدة المنوعة معبرا عن انفعال وحيد ينتظمه كله ويتسلل منه عبر المياه وعبر الاصوات الى السباح الى ذراعيه وقدميه فيمسهما بما يشبه السحر ، ويشعر انه على ابواب تلك اللحظة السحرية التي يصبح بعدها شيئا عاما كالشمس والهواء وضوء القمر . ان بينه وبينها ان يدور حول الجزيرة ، ان يقهر هذا النهر الذي يمتد في مجراه كما كان منذ الاف السنين ، ويعاوده الاحساس بان الصراع قائم بينه وبين النهر ، المسافة بينه وبين بقية السباحين اصبحت جسد بعيدة ... الشاطئ يهتف له وحده كان فوزه اصبح حقيقة واقعه ، ويشعر انه لم يعد يفصل بينه وبين هذه الحقيقة غير هذه المياه التي تمتد الى ما لانهاية .. النهر هو منافسه الحقيقي .. لن يتركه ابدا يستل طاقته ، سيرف هو كيف يستغل كل ما لدى النهر من قوى . سيسبح بعيدا عن الشاطئ ... قرب منتصف النهر ليندفع مع التيار الذي يشتد في وسط النهر باقل مجهود . وحين يدور حول الجزيرة ويصبح في مواجهة التيار يستطيع ان يسبح بجوار الشاطئ ليواجه اقل مقاومة ممكنة . ان السباحة في منتصف النهر سوف تبعده عن الشاطئ . عن هذا الشريط البشري الذي يشعر كأنه يشده الى الامام بقوى غير منظورة ولكنه يدرك في ذات الوقت ان فوزه في هذا الصراع يحتاج الى قوة من نوع اخر . قوة يملكها اكثر التيار المندفع في قلب النهر ، وابصر في نفس اللحظة جثة طائر ميت يدفعه التيار بعنف الى الاسام ...!

ويندفع السباح منحرفا قليلا الى منتصف النهر وهو يحيى الشاطئ بين لحظة واخرى والهتاف الذي ينبعث عن كل شبر في الشاطئ يلحق به مضييقا المسافة التي يبتعد فيها عنه . كان يتوقع ان يفتر الهتاف او يتقطع ولكنه استمر بنفس الحدة كأنما كان الشاطئ يسبح خلفه مقتربا من منتصف النهر ، كان شعوره بان الشاطئ يسبح خلفه يوشك ان يصبح حقيقة واقعة ويدرك بعد لحظات ان جماهير كثيرة قد استقلت زوارق عديدة وراحت تصنع الى جواره شاطئاً عائماً يرتدي نفس الازياء المنوعة ويعبر عن نفس الانفعال الوحيد ، ويشعر بمئات العيون وهي تتأمل حركات ذراعيه وقدميه وتتحوّل هذه الحركات في قلب النهر الى لمسات ساحرة تمس وجه المساء في رفة وسرعة ، كان يحس كأنه يؤدي بحركات جسده رقصات تعبر بدورها عن هذا الانفصال الذي يمس كل قطعة في جسده بما يشبه السحر .

✱ ✱

لا يدري كم من الوقت مضى قبل ان تنتهي رقصته تلك ، كان يقترب من كوبرى قصر النيل حيث يصل النهر الى اقصى اتساعه ، وبدأ الشاطئ العائم يتخلخل قليلا وسط النهر ، وتبدأ القوارب التي تؤلفه تنجح جهة الشاطئ ، ويفاجئه شعور بالارتياح لم ينبت مبعثه ودونما تفكير عاد يسبح على ظهره ، وعاد يشعر بالمياه اللينة تترجرج تحته ، وبحيرة الضوء يسبح فيها قرص الشمس قويا متوهجاً ، كان ضوءه ينعكس قويا على منظاره المائي فيوشك ان يغمض عينيه ، ويفكر ان

صدر حديثاً :

أعطينا حباً

ديوان جديد للشاعرة المبدعة

فدوى طوقان

دار الاداب - بيروت

خلاياه دائما كالجسد ولن تتعب اقدامه في اية لحظة لانه يملك الاف اقدام التي يفرها دائما .. اما هو فان قوته يجب ان تبقى دائما في قوة هذا الشريط ويشعر انه هو الذي يصنعه وانه هو الذي يفوده في طريقه حول النهر ان هذا الشريط لا يمتد ابدا الا حين يكون هناك بطل .. بطل يسبح في المقدمة .. بطل لا يتعب ..!! ويبصر النهر يمتد في تلك اللحظة امام عينيه طويلا وعلى مدى البصر يترأى لسه كوبري امبابه الذي تنتهي قبله الجزيرة وتبدأ عنده المرحلة الاخيرة الفاصلة ، ويفكر في ان يزيد من سرعته ليجد نفسه عند نهاية الجزيرة ولا يبقى الا ان يدور حولها ليواجه التيار ويواجهه في نفس اللحظة الفوز !

وراح يضرب صفحة المياه بذراعين مشدودتين الى الامام ورجلين مشدودتين الى الخلف محاولا ان يضاعف سرعته . ولكنه يحس على الفور بان ذراعيه تتفان فجأة وتنضخمان . وكان مياه النهر تتحول الى زيت ثقيل لزج يملأ انفه برائحة غريبة ...

وعاد يسبح بنفس المعدل الذي كان يسبح به ، وفي ذات اللحظة انفجر في داخله الخوف من المجهول الذي يكمن في الورا دائما .

ويسأل المدرب المرافق ...

- اين مكاني في السباق ؟

- المسافة بينك وبين اول سباح في الخلف تزيد على مئتي متر منذ ساعات لقد وصل كلاهما الى اقصى معدل له .

- اشعر بالجوع ...

- خذ هذه التفاحات ...

★ ★

بدأ طعم المياه الذي كان يسرب احيانا الى فمه يبدو متغيرا... كما بدأ شعوره بكثافة المياه يزداد حدة .. ويفكر ((ان النصر لن يعرف كيف يسبح طويلا في هذا الزيت اللزج .. ترى هل بدأوا جميعا يشعرون بان المياه تتحول الى زيت ؟

ويخطر في رأسه ان الشريط البشري وحده هو الذي لا يمكن ان يشعر ابدا بان النهر مملوء زيتا .. انه يمتد فوق ارض صلبه .. ارض صلبة ان احدا لا يفكر ابدا ماذا كان يحدث لو ان الارض لسم تكن بهذه الصلابة ربما كنا نتحول الى اسماك .. السمك لا يتعب في النهر .. والطيور لا تتعب في الهواء .. الانسان وحده يصير على ان يمسي في البرد، في البحر وفي الهواء .. امه لا بد قد نامت الان .. جميع الناس ينامون في الظهيرة .. في النهر تشابه كل الاوقات .. ولا يستطيع احد ان ينام . يستطيع اي واحد في الشريط المتسدد على الشاطئ ان يمضي دون ان يشعر به احد .. ان يذهب الى بيته وينام .. وبمقدوره ان ينام على الشاطئ .. انه وحده لا يستطيع ذلك ابدا .. ولكنه لا يضيره ذلك ما دام لا يريد .. انه مختلف عن كل هؤلاء الناس .. الابطال في كل مكان يختلفون عن الجميع .. حتى فيما يريدون .. ويشعر بان ريقه يجف .. وبان المياه التي تسرب الى فمه تعجز عن ان تبلل هذا الجفاف .. وبان اطرافه تبرد .. ويشرب برادا من الشاي .. وتظل اطرافه باردة .. لا تزال ذراعه متضخمتان ... انه يعرف ان في قدرته ان يسبح ساعات طويلة بهاتين الذراعين المتضخمتين .. النهر يمتد امامه كطريق لا نهاية له ويدفن وجهه في المياه ويسبح كقارب مقلوب .. بهذه الطريقة يمكنه ان يتقدم اكثر دون ان يبصر النهر الا في لحظات خاطفة يدفن بعدها رأسه من جديد ... صورة النهر الممتد تملؤه بالعناء لا يريد ان يرفع رأسه الا حين يدور حول الجزيرة حينذاك لن يبصر امامه سوى النهاية .. نهاية السباق ونهاية الصراع .. لو ان احدهم سبح باكثر من معدله لكسب السباق ..! ويفكر ان يعاود السؤال عن مكانه في السباق ولكنه لم يفعل ، ماذا لو عرف ان احدهم يسبح الان باكثر من معدله ليس في قدرته ابدا ان يزيد من سرعته ، ولن يربح من هذه المعرفة غير اليأس . بمقدوره ان يعرف مكانه من السباق لو لاحظ الشريط البشري الممتد الى جواره ! اذا تقدمه سباح اخر فسوف يتمزق

الروائح الغريبة تملأ انفه ... والصمت الثقيل يبرز اكثر الاصوات خفوتا .. اصوات طيور تلتقط الاسماك الصغيرة .. واصوات الاعشاب حين تعبت بها خفقت هواء عاب .. واصوات المياه التي يفوس فيها سباح بذراعيه وقدميه .. وشيئا فشيئا تختفي اصوات الطيور والعشب والمياه حين يستدير الشاطئ ليم دورته حول الجزيرة ، ويستدير معه السباح ليواجه التيار في مجرى ضيق .. وليواجه نفس الشريط البشري الذي يغطي الشاطئ بمئات السترات والماطف والجلاليب، كان الشريط قد اصبح اكثر كثافة .. كان يغطي شاطئ النهر المتقاربين وكان يتسع ليغطي جزءا من الشارع ويرتفع ليغطي نوافذ البيوت المظلة على النهر وشرفاتها ويقترب منه اكثر ليطل من نوافذ العوامات الراكدة بجوار الشاطئ ومن شرفاتها .. وينحرف السباح جهة الشاطئ ليتجنب مقاومة التيار في منتصف النهر .. ويمكنه ان يبصر في وضوح الوجوه التي تتزاحم في شرفات العوامات .. طفلة صغيرة محمولة على ذراعي امها تقذفه بياقات من الورد .. رجل عجوز يرتفع بنصف جسده الاعلى ليشاهده بينما بقي نصفه الاسفل مشدودا الى مقعده ذي العجلات ... رجال بملابس كاملة .. واخرون يبدو انهم تركوا فراشهم فجأة ..! فتيات يصفقن .. نساء بثياب البيت .. وخادمة سوداء تطل من نافذة المطبخ في احدى العوامات وتطلق زغرودة طويلة .. ويشعر السباح ان المياه الزيتية تزداد كثافة وتتحول الى مادة ثقيلة كريهة كالشحم .. وتبدو جميع الوجوه خلال الشحم الذائب .. متشابهة وباهتة ونائية .. كان يحلم بعوامة على النيل يقضي فيها بقية حياته لو ربح الجائزة .. هناك اناس كثيرون يملكون عوامات كثيرة دون ان يسبحوا في هذا الشحم الذائب يا له من حلم سخيف ... ذراعه ثقيلان .. انهما تحملان اكداسا من الشحم ..؟ لو تخلصت ذراعه من هذا الشحم لامكنه ان يسبح بسرعة هائلة ؟ مياه تبرد وتوشك ان تتجمد. اطرافه كلها تبرد .. الناس في العوامات لا يشعرون ابدا بان المياه باردة .. انهم يطلون من شرفات العوامة ويصفقون .. اصبح يسمع فقط تصفيقهم .. ان التصفيق يكف فيعرف انه ابتعد قليلا عن العوامة ربما كانوا نائمين قبل ان توظفهم ضجة السباق وحين

السباق

- تنمة المنشور على الصفحة ٣٢ -

تمر الضجة يعاودون النوم .. النوم .. امه الان نائمة .. كانت تحرص على الا توقفه حين ينام .. متى يجيء دوره لينام .. ليستريح مسن هذا الماء . الشريط البشري المتد على الشاطئ لا يظهر واضحا الا في الاماكن التي لا توجد فيها عوامات .. انه يغطي شاطئ النهر ويجعل رؤية الارض متعذرة تماما ... الكوبري الذي ينتهي عنده السباق لا يزال بعيدا .. انه يبدو عند نهاية الافق واهيانا يختفي خلف امواج النهر التي تزداد صلابة وارتفاعا !..

العوامات تتباعد .. والشريط البشري يغطي ارض الشاطئ .. يغطيها كلها .. لو انه يجد منطقة صغيرة خالية من هذا الشريط اللعين قطعة من الارض ، يمكنه ان يتسلل منها في هدوء .. لينام .. ارض الشاطئ صلبة ويمكنه ان يغمض عينيه فوقها وينام دون ان يخشى الموت غرقا !.. هذا الشريط اللعين .. يستطيع اي واحد فيه ان يمضي في هدوء لينذهب الى بيته .. ليجلس في اقرب مقهى .. الباعة المتجولون في هذا الشريط يكفون عن النداء حين تفرغ بضاعتهم ويعودون السى بيوتهم .. كلهم يفعلون ذلك في هدوء ودون ان يعترض طريقهم احد ولكنهم قبل ان يغادروا المكان يأتي اخرون دائما ليحتلوا نفس المكان .. ليطفوا كل شبر في ارض الشاطئ ليخفوها دائما عن عينيه .. ان هذا الشريط هو الذي يقوده في هذا الطريق الرهيب .. هو الذي يرغمه على ان يكون بطلا ، ماسخف هذا كله .. لماذا لم يحاول اي واحد منهم ان يفعل مثله ؟ لماذا لا يفكر الجميع في ان يكونوا ابطالا ؟ لماذا يؤثر الجميع ان يحيوا في هدوء ... ويتذكر في تلك اللحظة رفاقه في السباق .. لم يفكر في ان يكون احدهم قد تقدمه ابدا . فكر في انهم مثله متمبون وحمقى .. ويحلمون بالنوم فوق ارض صلبة .. الشريط اللعين يغف وحده فوق الارض الصلبة .. كانت تقتله لامبالاة الناس والان يقتله اهتمامهم .. لماذا لا يكون عن مطاردته .. الفوز .. الجائزة .. النوم .. امه .. العوامة .. ذراعاه تتحولان الى مجدافين لايسدري من الذي يحركهما . وعنقه يتحرك في صعوبة .. وامواج النهر تكبر وتكبر وتحجب عنه الشريط البشري .. ويشعر انه اصبح وحده تماما .. طافيا فوق المياه الزنبية الباردة .. الشريط البشري يفرق فجأة في النهر والشاطئ يختفي .. انه اصبح وحده ويستطيع ان يترك النهر ولكن الشاطئ بعيد جدا لا يكاد يبصره .. فقط ابصر في وضوح شديد وجه صبي ريفي عار تماما من ملابسه ، وحاول ان يتذكر اسمه عشا .. لم يتذكر سوى ان هذا الصبي قد انقذه مرة من الفرق وهو يتعلم السباحة في الترع الصغيرة التي كانت تمر بقربتهم وابصر في نفس اللحظة وجوه الفلاحين الذين اتوا من الحقول القريبة ساعة انقاده وبين الوجوه العديدة ابصر وجه امه .. كانت تبكي من الفرح وتنحسسه بيديها لتتأكد من انه لا يزال حيا .. ويمتلئ شاطئ الترع باناس كثيرين ، وراح يحدث في الوجوه التي تملأ ارض الشاطئ .. بعض هذه الوجوه كان غريبا تماما .. وبعضها كان يقول له مبروك .. وكان وهج الشمس يهر عينيه فاعمضهما والقى بنفسه فوق ارض الشاطئ ، واحس لحظتها ان الارض صلبة !..

★

كانت النافذة المسدلة الستائر تلقي الى ارض الحجرة الفسيحة بالمستشفى ضوءا خفيفا وفي هذا الضوء كان يبدو عشرات الصحفيين والزوار وهم يلتفون حول سرير الفائز الاول في سباق النيل الدولي .. كانت عينا السباح الفائز تنتقلان بين هذه الوجوه وبين عناوين الصحف التي تحمل في صدرها صورته .. « تمساح مصري يقهر

النيل » « روح الفراشة تنقص السباح المصري » « الارادة والعناد = الفوز » ..

وسال الصحفي الذي كتب العنوان الاخير على رأس مقاله .. هل يمكن ان توضح للقراء اهم الاسباب التي جعلتك تصمد حتى النهاية وتنفرد بالفوز في سباق لم يتمه سوى عدد قليل ..؟ وصمت السباح وارتسمت على شفثيه بسمة شاحبة ثم قال - الا ترى انك تحدثت عن هذه الاسباب بافضل مما تستطيع !.. وتطوع صحفي اخر بالاجابة .. - لن تكون هناك اسباب اهم من ارادة الفوز .. وراء كل بطل عظيم ارادة عظيمة !..

وسال صحفي اخر - اليس في حياتك امرأة ؟

ونظر السباح الى سيدة عجوز كانت تجلس على مقعد بركن الحجرة وعيناها مثبتتان عليه وشفثاه تتمتان بدعاء خافت .. ومرة اخرى لاذ بالصمت .. وأحس ان اجابته الثانية لن تكون افضل من الاولى ..

وتطوع نفس الصحفي بالاجابة .. - ان الحب الكبير لا يقل اهمية عن الارادة الكبيرة في خلق البطل .. وشعر السباح بغيظ صامت ثم ارتسمت على وجهه سمات الجهد حين ساله صحفي كان صامتا طول الوقت ..

- ما الفرق بين النصر والهزيمة ؟ فاجاب بحماس طارىء

- اعتقد انه في كثير من الاحيان يكون دقيقا جدا الى الحد الذي يمكن ان يتحول كل منهما الى الاخر بطريقة لا يمكن التنبؤ بها !! فعاد نفس الصحفي يسأل ..

- هل كان من الممكن ان يتحول نصرك الى هزيمة ؟ فاجاب وعلى شفثيه ابتسامة شاحبة .. - اجل .. - ولماذا لم يحدث ذلك ؟

- لست ادري !.. وفي نفس الوقت كان يمتد في رأس السباح شريط بشري طويل .. كان يشعر نحوه في لحظة واحدة بحب كبير وبقدر هائل من السخف .

محمد ابو المعاطي ابو النجا

صدر حديثا :

لهات الحياة

مجموعة شعرية وجدانية

للدكتور يوسف عز الدين

دار العلم للملايين